في هذا الدرس

- تطور علم الجغرافيا عند القدماء
- الجغرافيا في عصر الكشوف الجغرافية
- علم الجغرافيا الحديثة

تطور علم الجغرافيا عند القدماء

الساحل الغربي من إفريقيا في خريطة الإدريسي

بدأ الدارسون والفلاسفة يفكرون في العالم وينظرون إليه من خلال وجهات نظر مختلفة منذ القِدَم، وكان بمصر والعراق جغرافيون، كما كان منهم كثيرون في فارس والصين، غير أن الإغريق كانوا أول من اعتنى بوصف العالم، فعندما أدرك الإغريق أن شكل الأرض كروي بَيْضَوي، عُدّ ذلك إنجازاً ضخماً في حد ذاته، إلى جانب منجزات أخرى لهم عندما أدركوا ما بين موقع الشمس والطقس من ترابط، وما بين المناخ ومكان الشمس في الأفق من علاقة.

ومع أنه كان بالعالم الإسلامي في العصور الوسطى نوع من الجغرافيا المتقدمة - حيث اتسعت المعارف الجغرافية - فقد طرحت أوروبا معلومات الإغريق جانباً في العصور الوسطى؛ لأن أنظار الناس كانت توجهها الكنيسة وتقمع الابتكار والبحث العلمي، ولذلك تخلفت أوروبا في مجال المعارف الجغرافية حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي.

ووسط هذا العزوف الأوروبي عن المعارف الجغرافية سيطرت الأساطير والخرافات على أذهان الناس، ولا سيما ما يستند منها إلى أصل من خبرة تجريبية، فالذين سافروا على طول ساحل إفريقيا الغربي - وقد كان ذلك أمراً ميسوراً لحركة التجارة بين الشمال والجنوب ولوجود التيار البحري المساعد على ذلك - قد أدركوا أن أرض المغرب الخضراء لا تستمر بل تخف

الخضرة قليلاً قليلاً حتى تستحيل صحراءَ جرداءَ، ثم تزداد الحرارة تدريجياً إلى درجة أن الناس ظنوا أنهم سيهلكون إن استمروا في سفرهم نحو الجنوب لشدة الحرارة هناك، ورسَّخ ذلك في أذهانهم ما لَحَظوه من اتجاه الرياح والتيار نحو الجنوب، وهكذا كانت جزر الكناري في نظرهم هي الحد الجنوبي الذي يستطيع الإنسان الوصول إليه.

وحققت أوروبا إنجازاً عظيماً في مستهل القرن الخامس عشر الميلادي (١٤١٦م) على يد هنري الملّاح ومدرسته في الملاحة التي كان من شأنها أن تفتح أبواب العالم، فامتدت آفاق الملاحة وجمعت المعلومات الملاحية عنها.

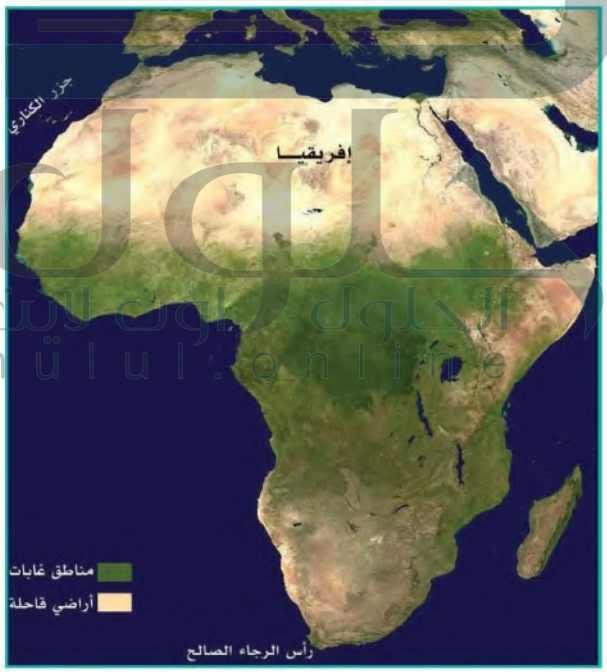

خريطة الساحل الغربي من إفريقيا

الجغرافيا في عصر الكشوف الجغرافية

في عصر الكشوف الجغرافية اقتحم كولومبس البحر الكاريبي، وقد وصل إلى العالم الجديد عام ١٤٩٢م، ولكن هذا لم يكن الشيء المهم، فالتاريخ المهم حقاً هو عام ١٤٩٣م عندما عاد ليخبر الناس عن العالم الجديد، لقد وصلت على الأرجح مئات السفن إلى العالم الجديد من العالم القديم قبل هذا التاريخ، ولم يكن المهم وصولها بل عودتها.

ودخل البرتغاليون المحيط الهندي تحت قيادة فاسكو دا جاما عام ١٤٩٧م، وعَبَروا رأس الرجاء الصالح، وأبحروا إلى البرازيل والهند. وبعد هذا لم يبقَ مجال للتخمين عن سائر البقاع في العالم، وتأكدت للناس كروية الأرض.

وفي العالم الجديد اكتُشف أمران: أولهما: شكل العالم ومحيطاته، وثانيهما: معرفة مجتمعات لم تكن معروفة أبداً، ومعرفة شعوب لها تاريخ عريق كغيرها من الشعوب الأوروبية الأخرى، ولكنها منقطعة الصلة بها، ولها قيمها وتقاليدها ولغاتها، وأساليبها الفنية كذلك.

وبدءاً من عام ١٥٠٠م صار للجغرافيا قيمة وزادت العناية بها، فالمعرفة بأماكن الحصول على الموارد تضمن التفوق والسبق، وهكذا صارت الخرائط والتقارير من الوثائق المهمة جداً، وحاول الإسبان والبرتغاليون -كما حاول الفينيقيون من قبل- أن يحتفظوا بسر هذه المعلومات، وظلوا يرسلون الحملات دون انقطاع لاكتشاف إمبراطوريات أخرى تموج بالثروات والذهب.

وبحلول القرن الثامن عشر الميلادي أصبح البحث العلمي مُركّزاً في محتوى هذا العالم ومضمونه، فبدأت البحوث العلمية الحكومية التي صممت لكي تملأ الفجوات في المعرفة الجغرافية وخصوصاً في بريطانيا وفرنسا وهولندا.

وما إنْ حلت نهاية القرن الثامن عشر الميلادي حتى كانت أجزاء العالم قد عُرفت على وجه الدقة، ما عدا المناطق الداخلية لبعض القارات لا سيما إفريقيا، والأجزاء الداخلية من شبه الجزيرة العربية، وبخاصة الربع الخالي. أما الخطوط الساحلية فقد رسمت كلها تقريباً، كما توافرت بعض المعلومات الجغرافية الحديثة عن الشعوب التي تعيش هناك.

علم الجغرافيا الحديثة

في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي انتقلت الجغرافيا إلى مرحلة جديدة هدفها بلورة الأفكار الجغرافية في شكل نظريات علمية استناداً إلى الحجم الهائل من المعلومات الجغرافية الموروثة، فأدى هذا إلى بدء مرحلة الجغرافيا الحديثة. ويمكن تتبع خُطا علم الجغرافيا الحديثة عبر تطور أسلوبين متميزين في القرن التاسع عشر الميلادي لتفسير العلاقة بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها، هما: أسلوب الحتمية البيئية Environmental Determinism، وأسلوب النظرية الإمكانية Environmental Possibilism.

أولاً: أسلوب الحتمية البيئية

الحتمية البيئية نظرة جغرافية فلسفية تؤمن بسيادة البيئة الطبيعية وعناصرها وتحكُّمها في الظواهر البشرية؛ فتفسِّر مختلف الظواهر البشرية وتعزو تباينها إلى الاختلافات في البيئات الطبيعية التي يقطنها البشر. ونقيض هذه هي النظرة الإمكانية.

ثانياً: أسلوب النظرية الإمكانية

تطورت مدرسة فكرية أخرى في القرن التاسع عشر الميلادي في الجغرافيا البشرية لا سيما في فرنسا، وهي ترى أن أجدى وسيلة لتطوير علم الجغرافيا ليست هي البحث عن قوانين عامة، بل دراسة الأقاليم دراسة دقيقة. ويقرِّر أصحاب هذه المدرسة أن كثيراً من النظريات التي تدعو للحتمية البيئية نظريات جذابة، ولكن ما من نظرية بسيطة تفسر تفسيراً تامًّا العلاقة بين البيئة والمجتمعات البشرية، فشؤون البشر وسلوكاتهم ليست بسيطة بل معقدة، وعندما ندرس أي موقف عالمي أو حدث تاريخي دراسة دقيقة فإن أي تفسير يعتمد على عامل واحد ليس كافياً؛ ولذلك جاء الجغرافيون الفرنسيون في القرن التاسع عشر بنظرية الإمكانية نقيضاً للحتمية البيئية.

فالإمكانية نظرة جغرافية فلسفية تؤمن بحرية البشر في الاختيار، والبيئة الطبيعية لا تحتوي على ضرورات وحتميات بل على إمكانات، والإنسان هو الحَكَم في اختيار ما يلائمه منها. كما أن له قوة إيجابية فعالة في تعديل البيئة وتهيئتها لمطالبه، أو تغييرها وفقاً لما يلائمه.

فكر

حسب رأيك..

أي الأسلوبين تؤيد؟ ولماذا؟

أنا أؤيد أسلوب النظرية الإمكانية لأنني أوافق على كل ما جاء في هذه النظرية